مدخل عن حياة وأعمال
الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة

بقلم أ.د محمد زكريا عناني*

في هذه الفترة العصيبة العاصفة من عمر الوطن؛ الفترة التي شهدت فيها البلاد التحولات السياسية الكبرى، بعد اندلاع ثورة ١٩١٩م، وذهاب سعد[١] للمنفى ثم رجوعه للبلاد، ووضع دستور ١٩٢٣، والدخول في مراحل الشّدّ والجذب مع الاستعمار، والفترة التي شهدت ظهور وعي عميقٍ بتراث الأمة، ومن ثم نشطت حركة النشر والتحقيق، وإنشاء المكتبات الكبرى، وطبع مئات الدواوين والمعاجم والموسوعات.

والفترة التي شهدت اكتمال نضج الشعراء والكتّاب الكبار، من أمثال طه حسين، والعقاد، وشوقي، وحافظ، وخليل مطران، ومصطفى صادق الرافعي، وإبراهيم عبد القادر المازني وعشرات آخرين.

والفترة التي شهدت العديد من الظواهر الثقافية الكبرى، مثل جماعة الديوان، وجماعة أبولو ومجلتها الفريدة في بابها، كما آذنت بقرب ظهور مجلتي الرسالة والثقافة وغيرها من عنابر الفكر الرفيع.

---

* أستاذ بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مصر.

(١) سعد زغلول باشا، زعيم مصري.

obeikandl.com

في هذه الفترة المشحونة بالتيارات والانفعالات يولد محمد مصطفى هدارة (في العاشر من فبراير سنة ١٩٣٠) بمدينة الإسكندرية التي امتزج بها، كما امتزجت به، حتى أصبح واحداً من أهم رموزها الثقافية بلا مراء.

وإذا كانت مراحل حياة الرجل معروفة بوضوح تام (من خلال كُتيّب ظهر منذ حين بعنوان: روّاد غرب الدلتا، وكذلك الكتيب الذي صدر عن مجلة الرافعي بعنوان: الأصيل معاصراً) فإن هناك علامات أو سمات تستحق التنويه، منها أن ميله إلى اللغة العربية كان قد ظهر مبكراً، حتى إنه كان في مراحل دراسته الابتدائية والثانوية ((نجماً في اللغة العربية وآدابها))، تُقْرأُ على طلاب فصله موضوعاتُه الإنشائية، ويُلقي الشعرَ أمام المفتشين وكبار الزائرين... وكانت له في أثناء دراسته الثانوية محاولات جيدة في كتابة الشعر، والمسرحية، والقصة القصيرة، والرواية، نشر بعضها في مجلة الثقافة وغيرها من المجلات.

ومن العلامات الأخرى: أنّه التحق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، حتى تخرج في عام ١٩٥٢ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، ليواصل بعدها الدراسة لنيل درجة الماجستير، حتى يحصل عليه سنة ١٩٥٧ (بتقدير ممتاز)، ثم الدكتوراه سنة ١٩٦٠ (بمرتبة الشرف الأولى).

وتقلّب الرجل في وظائف شتى، إذ عمل أول ما عمل معيداً بكلية الآداب جامعة عين شمس، ثم تركها -في ظروف غامضة- ليعمل لفترة قصيرة من الزمن مدرساً بمدرسة الرمل الثانوية بالإسكندرية (الناصرية حالياً)، وهذه المرحلة قلما أشار إليها هو، أو ذكرها من كتبوا عنه، على الرغم من أنه كان في أثنائها

صاحب تأثير كبير في نفوس طلابه، وأشرف خلالها على عدد من أعمالهم المنشورة، كما تولى إصدار مجلة كبيرة لهم.

وعين بعد ذلك ملحقاً ثقافياً بجامعة الدول العربية، وفي خضم هذه الفترة كان قد حصل على درجة الدكتوراه، مما جعل جامعة الإسكندرية ترحب به ليعمل بها مدرساً للأدب (سنة ١٩٦٠)، حتى نال درجة الأستاذية (سنة ١٩٧٢)، وتولى بها العديد من المناصب الإدارية، من أهمها: وكالة الدراسات العليا بكلية الآداب، ورئاسة قسم اللغة العربية لعدة دورات، كما تولى عمادة كلية الآداب بطنطا، وأعير للعمل بجامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٩٦٦، ثم لجامعة الرياض، ودُعِي لإلقاء محاضرات في أقطار شتى من الوطن العربي، والصين، والولايات المتحدة الأمريكية، وألمانيا وغيرها، وظلّ إلى آخر أيام حياته يوالي الكتابة، والإسهام في الحياة العلمية والثقافية بما عُهد عنه من ذكاء وألمعية وفطنة، مما جعله من النماذج الفريدة في هذا المضمار.

وقد خلّف الدكتور محمد مصطفى هدارة تراثاً أدبياً ضخماً فمن ذلك:

- التجديد في شعر المهجر، ويُعدّ من أوائل كتبه.

- تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان، وهو من الدراسات الجامعة المتعمقة، ولعله أفضل ما أُلّف في بابه.

- مشكلة السرقات في النقد العربي، وهو البحث الذي تقدم به لنيل درجة الماجستير في الآداب، ولا يزال يُعَدّ أفضل الدراسات الأكاديمية في موضوعه.

- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، وهذا البحث الذي تقدَّم به لنيل درجة الدكتوراه في الآداب، ومن المؤكد أنه أفضل ما أُلِّف في بابه، وقد عَوّل عليه العديد من الباحثين، وبنوا بوحي منه العديدَ من دراساتهم وبحوثهم.

- مقالات في النقد الأدبي، وطبع أكثر من مرَّة في مصر والمملكة العربية السعودية.

- دراسات في الشعر العربي (جزآن).

- الشعر العربي في العصر الجاهلي.

- الشعر العربي في القرن الأول الهجري.

- المأمون الخليفة العالم.

- النقد الأدبي الحديث.

- الشعر العربي الحديث.

- الشعر المعاصر إلى أين؟

- دراسات في النثر العربي الحديث..

- دراسات في الشعراء العرب المُحدَثين، وهو الكتاب الضخم (في جزأين من قرابة ألف صفحة) الذي استحق عليه نيل جائزة (محمد حسن فقي) في الدراسات الأدبية والنقدية.

وللدكتور محمد مصطفى هدارة العديد من الكتب المحققة مثل:

- سرقات أبي نواس لمهلهل بن يموت.

obeikandl.com

- ضرائر الشعر للقزاز القيرواني (بالاشتراك).

- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي.

كما ترجم عن الإنجليزية خمسة مؤلفات هي:

١- الإسلام لألفريد جيوم.

٢- يوميات هيروشيما لهاشيا.

٣- قاهر القطب الجنوبي لرتشارد بيرد.

٤- ملفل الملاح الصغير لجين جولد.

٥- عالم القصة لبرنارد ديفوتو.

أما بحوثه المنشورة فإنها فيض من العلم وقوة العارضة وحسن الاحتجاج والحماس لما يقول، ويمكن أن نورد هنا كذلك ما كان يشارك به من ندوات وأحاديث إذاعية وتلفزيونية، وربما جاز كذلك أن يسجل هنا ما يشير إلى الكَمّ الهائل من التقارير العلمية التي كتبها حول بحوث الترقي لدرجة أستاذ وأستاذ مساعد، التي كان يتقدم بها أعضاء هيئة التدريس بالجامعات، وتبلغ قرابة مائتي تقرير، فضلاً عن قرابة مائتي رسالة جامعية أشرف عليها، وأعداد أخرى من الصعب حصرها، مما قام بالاشتراك في لجان الحكم عليه، وكان من المعروف عنه أنه يكرس جهداً كبيراً لكل عمل يسند إليه، ويوليه ما يستحق من عناية ومراجعة واستيعاب.

ولم يكن هناك نظير لطاقة الرجل في مجال إعداد المؤتمرات والمشروعات العلمية، والإدلاء بالآراء الحصيفة في أدقّ التفصيلات الفنية المتعلقة بذلك، وقد

أسهم إبّان عمله بالإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية على عدد من المشروعات العلمية ذات القيمة، مثل الإعداد لترجمته كتاب بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ولقانون توحيد المطبوعات بالعالم العربي، وتقديم نشرة ببليوجرافية موحدة للمؤلفات التي تصدر في مختلف الأقطار العربية، كما أسهم في التخطيط لإنشاء مركز لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وكانت له جهود بارزة أثناء عضويته بالمجلس الأعلى للثقافة في لجنة الدراسات الأدبية، وفي إعداد مواد المنتخبات الأدبية المعروفة باسم ((الروائع))، ومن الممكن إضافة حشد هائل من الأعمال الجليلة التي كان له فيها قصب السبق، والرأي الناضج العميق.

كذلك فإن هذه الكلمة الموجزة لا ينبغي لها أن تخلو من تنويه بالجانب الفني للرجل، والذي تمثل في روايته الشهيرة ((المنصورة))، وفي قصائده العديدة مما ظهر على مدى نصف قرن.

وقد كان من حقّ هذه الكلمة أن تأتي والرجل ملء السمع والبصر، كما أن سطور هذا الكتاب كان مقدراً لها أن تصدر، إذ كتبتْها أقلامُ زملائه وتلاميذه ومحبيه عندما كان بيننا علماً يهل، فتتضاءل أمامه النفوس، وتشحب وجوه الأدعياء، وتتكسر الفقاقيع الخاوية إلا من الزهو الأجوف، والصخب الأرعن.

لكن الرجل مضى إلى بارئه، بعد أن أدى رسالته، وملأ الدنيا علماً وكفاحاً وحركة وحيوية، وتلاميذه في كلّ مكان يواصلون رسالته، ويحملون علمه، ويعلون كلمة الحقّ، وفكرة الإيمان التي عاش العمر كلّه يجاهد في سبيل غرس ثمراتها، والذود عنها ضد الحاقدين، والمتغطرسين، ومَن في آذانهم وقرٌ، والمصعّرين خدودهم، وما يساوون -لو علموا- إلا قبض الريح.

لقد كان محمد مصطفى هدارة ظاهرة بالمعنى الكامل للأبعاد، و((مؤسسة)) أُسّسَت على التقوى والورع والعلم والإيمان، فلا غرابة - بعد هدارة أن وجفتْ لرحيله القلوب، وحزنت لفراقه نفوس عارفيه ومحبيه في الشرق والغرب، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وإنما تفنى الأجساد وتبقى الأعمال، وتنطوي الدهور والأيام، ولا تتوارى مآثر الرجال..

obeikandl.com